الهيكسوس

مطاردتهم في مصر

للدكتور باهور ليب

جازت هذه المرحلة أدواراً كثيرة أهمها : —

ما وصل إلينا من عهد الملك « سقنن رع » اللقب « قن » أحد ملوك الأسرة السابعة عشر . والدور الذي لعبهُ ذلك الملك في مطاردة الهيكسوس مذكور في بردية ساليه بالمتحف البريطاني ثم ما ورد في لوحة معروفة بلوحة كارنارفون بالمتحف المصري وهي لوحة خشبية كتب عليها بالهيراطيقية ملخص الحرب التي دارت بين الملك كامس والهيكسوس ثم النص الذي يحدثنا فيه القائد « أحمس بن أبانا » عما قام به الملك أحمس الاول في سبيل طرد الهيكسوس من مصر

أما المصدر الاول فيحدثنا عن أن الملك « سقنن رع » كان ملكاً على اقليم طيبة وكان يعاصره ملكٌ من الهيكسوس يدعى « ابوفيس » . وقد جمع ابوفيس في أحد الأيام كبار قومه وتحدث معهم وربما كان الحديث يدور حول تدبير مؤامرة لاغتيال الملك « سقنن رع » وها هو ذا جزء من هذه النصوص تدلنا ترجمته على ما ذهبنا اليه : « . . . انقضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك ابوفيس الى الملك « سقنن رع » بالعاصمة الجنوبية (طيبة) رسالة ولما وصل رسول الملك أبوفيس الى طيبة احضروا الى ملكها — فسئل أحد رسل الملك أبوفيس هذا السؤال : « لماذا جئت الى العاصمة الجنوبية ولاي سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ »

فأجاب ان الملك ابوفيس أرسلنا اليكم لنخبركم بأن دب البحر الساكن في بحيرة طيبة يمنع جلالته من النوم نهاراً وليلاً وصياحهُ يرعج أذني الملك » . . . حزن الملك سقنن رع وتألم ولم يرد الجواب ثم عاد رسول الملك ابوفيس الى سيده . . . » ومن سياق الكلام نفسه نعلم انهُ على أثر ذهاب رسول ابوفيس الى سيده دعا سقنن رع قواده ورؤساء حكومته وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس فحكتروا جميعاً ولم ينطقوا بكلمة واحدة (وهنا سقط الاصل) ولم تكمل القصة التي كانت تحوي كثيراً من المعلومات التاريخية

فمن الجائز أن يكون رسل الملك ابوفيس عبارة عن أفراد عصابة أرسلها الملك لاغتيال

حياة « سقنن رع » وقد عثر في مهشم عندما بعد أن اختلفوا الحيل والتقوا الاسباب التي من أجلها أرسلهم ملكهم كذلك نعلم أن جثة هذا الملك « سقنن رع » وجدت في معبد الدير البحري وفيها آثار جروح نتيجة ضربات مميتة فهل معنى ذلك أن هناك مؤامرة دبرت لاغتيال هذا الملك العظيم ؟ أم سقط صريعاً في ميدان القتال ثم أنقذ أحد أتباعه جثته من العدو؟

أرجح شخصياً الرأي الثاني وذلك لأن آثار الجهاد واضحة في جثة هذا الملك وهذا ما يحملنا على الظن انه ثار على العزاة وأوقد الحمية في صدور شعبه فقاموا قومة رجل واحد ليطردوا الهيكسوس من مصر . ويؤيد ذلك أيضاً ان خليفة هذا الملك وهو ابنه كامس واصل الحرب مع الهيكسوس

أما المصدر الثاني وهو لوحة كورنارفون فقد عرفنا تفاصيلها عند ما تكلمنا في أول هذا المقال (مقتطف نوفمبر ١٩٤٢ صفحة ٤٠٥) مما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية

والمصدر الثالث عبارة عن نص القائد البحري أحمس بن ابانا (اسمه أبانا نسبة الى اسم أمه وقد كان ذلك شائعاً عند قدماء المصريين مما يبين لنا مركز المرأة قديماً . أما اسم والده فقد كان « ابنا » وقد كان ابنا والد القائد أحمس هذا معاصراً للملك سقنن رع)

وقد ظهر هذا القائد في المرحلة الاخيرة من مطاردة الهيكسوس وعاش في بلدة الكاب وقد بدأ حياته العملية أيام الملك أحمس الاول الذي عيّنه قائداً في إحدى السفن . وما يهمنا في نص هذا القائد [1] من الوجهة التاريخية في موضوع مطاردة الهيكسوس هو ما يأتي :

« ..... كنت أتبع الملك ماشياً عند ما ركب عجلته وعند ما حاصر الملك بلدة حات وعرت (هوارس) وقد أظهرت شجاعة على قدمي ماشياً أمام جلالته وبعد ذلك رقاني (جلالته) إلى السفينة المسماة خع ام منو ثم حارب الملك في مياه قطنه يجدكر الواقعة بجهة حات وعرت (هوارس) ثم حوربت وأحضرت أسيراً وسُمعت هذه المسألة الى كاتب سر الملك فأنعم علي بعد ذلك بذهب الشجاعة وحارب الملك في أجزاء مصر بعد ذلك الواقعة في جنوبي هذه البلدة (وقد اختلف العلماء فيما هو المقصود من البلدة التي حارب الملك جنوبيها فبعضهم يقول أن المقصود بها « بلدة هوارس » المذكورة في النص . وبعض الآخر يقول انها بلدة الكاب حيث مقبرة هذا الموظف الذي كتب لنا عن تاريخ حياته . وأرجح أنا شخصياً الرأي الثاني لأنه ليس من المعقول أن تدور معاركها في هذا الوقت المبكر ضد الملك أحمس الاول فتقصد إذن هي مدينة الكاب ويستنتج ذلك أيضاً من استمرار إغارة الهيكسوس على مصر واضطرار أحمس بعد هذه الفترة ذكر تلك الاغارة التي كانت في عهد الملك الذي

[1] K. Sethe, Urkunden des Aegyptischen Altertums IV

سبق أحمس وهو كامس : « وبعد ذلك استولى الملك على مدينة حات وسرت (هوارس) وكنت قد حضرت من هناك غنيمة رجل واحد وثلاث نسوة أي أربع رؤوس أسرى . »

ثم يستمر النص فيقول : « وقد أعطاهم جلالته إياهم كعبيد » « ثم حاصر الملك المدة شاروهين مدة ثلاث سنوات ثم استولى جلالته عليها »

فمن هذا النص نستنتج محاصرة الملك لمدة هورس عاصمة الهيكسوس ثم استيلاءه عليها ثم بعد ذلك مطاردته الهيكسوس في عقر دارهم ومحاصرته لمدة شاروهين بعد أن تعقبهم الملك اليها ثم استولى عليها بعد محاصرتها ثلاثة أعوام . وهذا مهم من الوجهة التاريخية إذ يبين لنا أن احمس الاول طرد الهيكسوس من مصر بعد ان استولى على عاصمتهم ثم طاردهم إلى جنوب فلسطين

وبذلك تتم الجزء التاريخي الذي يهمنا في مطاردة الهيكسوس من نص القائد أحمس بن أبانا

ويحكم الملك أحمس الأول ينتهي حكم الهيكسوس ويعتلي ملوك طيبة ثانية عرش مصر ويبدأ تاريخ عصر هام تحقق فيه توحيد مصر من جديد وهو ما نسميه « بعصر التوحيد الثالث » والمسمى « بعصر الدولة الحديثة » طبقاً لما هو شائع . وذلك لأنه على يدي أحمس الاول تمت مطاردة الهيكسوس من البلاد المصرية وعلى يديه كذلك رجعت الى مصر الوحدة القومية لأن حرب مطاردة الهيكسوس لم تكن حرب استقلال فقط بل هي أيضاً فرصة اغتنمها ملوك طيبة لكي يسيطروا على القطر المصري بأجمعه . وقد تم لهم ذلك على يد عميدهم الملك أحمس الأول . وهنا نرى ظهور نفوذ طيبة السياسي للمرة الثانية بعد أن ظهر أولاً في أيام الدولة الوسطى وكان من أهم الاشياء في هذا العهد ليس الانتصار[٣] على فرقة آخرين وانما كان مطاردة شعب اجنبي

وبالرغم من الخطار التي عادت على مصر من حكم الهيكسوس من تفكك في الادارة والتصدع الوحدة إلا أن المصريين جنوا من عصر هؤلاء الغيرين الفوائد الآتية :—

عند مطاردة الهيكسوس رأت مصر تتطلع الى البلاد الاسيوية المجاورة لها ولاسيما فلسطين وسوريا وأصبحت جزءاً من مصر أي نظرت اليها كأجزاء لا يمكن الاستغناء عنها وبذلك أصبحت مصر أمة غير منعزلة عن باقي العالم فأصبح لها مقام دولي عام محدد في مراسلات أو معاهدات دولية . كذلك كان لغزو الهيكسوس لمصر مزايا لا يمكن انكارها فظهرت آثارها فيما بعد ظهوراً واضحاً مما أنتجه من رخاء فمثلاً استفاد المصريون أشياء كثيرة أثرت في الصناعة المصرية ومنها صناعة العربات التي كانت سبباً في رقي وحلب أيادي عمة كثيرة

(٣) راجع مقالات المؤلف في مجلة كلية الآداب . المجلد السادس من السنة ١٩٤٢ صحيفة ١٢٧

للمصريين كما ان المصري تعلم هذه الصناعة تعلماً دقيقاً وما يتبع ذلك من عمل الجلود وغيره لعربة والجياد وهناك كذلك صناعة أخرى وهي صناعة الأسلحة ولا سيما الخناجر فبذلك زادت أعمال الشعب المصري في هاتين الصناعتين

ومن مميزات غزو الهيكسوس لمصر انشاء جيش نظامي دائم مجهز بالاسلحة ومزوّد لأول مرة في تاريخ مصر القديم بالجياد والعربات الحربية وذلك لأن الهيكسوس هم أول من أدخل الجواد والعربة في مصر وزيادة على ذلك استفاد المصريون أثناء وجود الهيكسوس في مصر استعمال الجواد والعربة في الحروب فتعلموا من الهيكسوس الفنون الحربية وطرق الكفاح المختلفة فثاروا في وجه العزاة كما تقدم ثورة موفقة وعلى ذلك كان حكم الهيكسوس في مصر هو العامل القوي الذي جعل من الشعب المصري لأول مرة في تاريخه شعباً محارباً مستبسلاً طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوّق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الغزو والحرب فتولدت في الشعب المصري روح الاستعمار . ومن الطبيعي إذن أن يتبع ذلك كثرة الوظائف الحربية والمدنية أي وجود أيادٍ عاملة في مصر وفي خارجها وقد استنتجنا ذلك من الألقاب التي كان أكثرها غير معروف قبل عصر الهيكسوس

وكان المصريون يفخرون بوظائفهم الحربية وقد أشارت الى ذلك نقوشهم وازداد تشجيع الملوك للقواد الحربيين فأعطوا الاراضي ومنحوا النياشين بل فرض أغلب ملوك عصر التوحيد الثالث على أولياء عهودهم دراسة الفنون الحربية في مدرسة أو كلية أنشئت خصيصاً لذلك في منف[٣] بل أكثر من ذلك فقد فرض على اولياء العهود أن يتولوا بادارة مصنع بناء السفن والاسطول (دار الصنعة) الذي أنشئ في هذا العصر على مقربة من منف فعلى سبيل المثل نعلم أن ولي العهد امنحتب ابن الملك تحتمس الثالث وهو الذي عرف فيما بعد باسم الملك امنحتب الثاني كان يشرف على ادارة مصنع بناء السفن والاسطول[٤]

وكذلك كان من نتيجة غزو الهيكسوس مصر تأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تدفقت الخيرات منها على مصر كما تدفقت الأموال على بيت فرعون فعمّ الرخاء وازدادت موارد مصر كثيراً مما أدى الى تقدم المدنية المصرية

وكان من الفوائد والمميزات الكثيرة التي عادت على مصر بالخير أيضاً بعد غزوة الهيكسوس ظهور شبه انقلاب في السياسة وفي الحالة الاجتماعية بل وأدمجت في اللغة المصرية نفسها كلمات سامية كثيرة

(يتبع) نؤاد الاول

(٣) Helck, Der Einfluss der Militärführer

(٤) Gauthier, Aeg. Zeitschrift, 60